سميح القاسم

أُمثولة

وقصائد أخرى

مؤسسة الأسوار ـ عكا

سميح القاسم

أُلمثّل

وقصائد أُخرى

مؤسسة الأسوار – عكا

منشورات مؤسسة الأسوار – عكا

الطبعة الأولى – ٢٠٠٠

جميع الحقوق محفوظة

الغلاف للفنانة ارينا كركبي

المطبعة العربية الحديثة – القدس – هاتف: ٠٢–٦٢٧٢٥٦٤

قصائد الديوان

خمسون ٥

صولوا وجولوا ١٥

شرف العائلة ٢٤

حنّاء العروس ٢٩

أعيذ الحق ٣٦

توءمان ٤٢

القصيدة الشامية ٤٥

القصيدة اللبنانية ٦٢

القصيدة العُمانية ٧٢

بائية العرب ٨٢

الممثل ٩٢

خمـــون...

آلـبـئـرُ بـئـري. وهـذا المـاء مـن مَـطـري

والـشـأنُ شـأنـي. قُـراحـي كـانَ أم كَـدَري

بـئـري. ومـائـي. وطـيـنـي صـائـراً جَسَـداً

وصـــائـــراً بـــلـــداً. بَـــدْواً إلـــى حَـــضَـــرِ

هُـنـا ابـتـدأتُ. وشـبَّـتْ نُـطـفـتـي أُسَـراً

أصـــلابُـــهـــا أُسَـــرٌ. تمـــتـــدّ فـــي أُسَـــرِ

وصـعَّـدتْ هـمَّـتـي. تـوقـاً لـهـمَّـتـهـا

وغوَّرتْ سكّتـي فاستنهـضَتْ شَـجَـري

بيـتـاً فـبـيـتـاً غـرسـتُ الـسـفـحَ عـافـيـةً

وقلـتُ لـلـمـرجِ: كُنْ، بـالأخـضَـرِ الـنَّـضِـرِ

وقلـتُ لـلـريـح: هُـبِّـي بـالـلـقـاحِ كـمـا

يـهـوى جـمـوحُ الـهـوى عـيـداً لمـزدَهـر

وقلـتُ لـلأرضِ: لـوضـنَّـتْ مـواسـمُـنـا

مـواسـمُ الخـيـرِ وعـدُ الـكـدْحِ. فـانـتـظـري!

هُـنـا خَـلَـفْـتُ هُـنـا مـن كـلِّ جـارحـةٍ

مـن كُـلِّ نـاضـحـةٍ. مـن كـلِّ مُـعْـتَـصَـرِ

أنـــا بـــلادي. بـــذارُ الحُـــبِّ حـــنـــطـــتُـــهـــا

وزيـــتُ زيـــتـــونـــهـــا مـــصـــبـــاحُـــهُ وَطَـــري

وغـــشـــبُـــهـــا لُـــغـــتـــي لَـــو كـــابـــرتْ لُـــغـــةٌ

ولـــو خـــبـــا قـــمـــرٌ. لـــيـــمـــونُـــهـــا قَـــمَـــري

وغـــازَلَـــتـــهـــا شـــعـــوبُ الأرضِ قـــاطـــبـــةً

لـــكـــنَّـــهـــا آثـــرتْ عـــزفـــي عـــلـــى وَتَـــري

ولـــلـــمـــهـــادِ مـــهـــودٌ. فـــي ســـلالـــتِـــهـــا

جـيـلٌ يـصـيـحُ بـجـيـلٍ: عُـدتُ مـن سَـفَـري!

هـنـا الـقـنـاديـلُ. والـلـيـلُ المـغـيـرُ عـلـى

مـنـابـع الـضـوء. غـرّاً ضـاقَ بـالـعـبَـر

هـا "أُسـامـةُ". وشـمـاً. فـي مـلامِـحِـه

"إبنُ الوليد". وبعضُ الوشم من "عُمَر"

هنا قميصُ "صلاح الدين" متَّشِحاً

زهورَ "حطّين" في قيلولةِ الظَّفَرِ

وتـذكُـرُ الأرضُ كـمّاً أنـعـمتْ فـكـمّتْ

حُبَاً وخصباً. ولم تبخلْ بمُدَّخَر

وتـذكُـرُ الأرضُ قـلـبـاً أدمـنـتْـهُ عـلـى

عُـرسٍ عـلـى مـأتمٍ، فـي جَـنَّـةٍ- سَـقَـرِ

هـنـا المـقـابـرُ. أجـدادٌ وصـيَّـتُـهُـم

بـلـوغُ أحـفـادِهـم. أُنـثـى إلـى ذَكَـرِ

ونَسْجُ أكفانِهِم ملءَ الردى علماً

للصاعدينَ. سرايا ساعةَ الخَطَرِ

وإنهَّا نكبةٌ حَلَّت على سِنَةٍ

من ساهرينَ. حلالٌ لاسمِهِم سَهَري

ما قدَّروا أنَّ في أثوابهم نَسَماً

يستدرجُ النارَ بين الريح والشَّرَرِ

وإنها نكبةٌ من نكبةٍ. رفعتْ

قَدْرَ الضعيفِ على أقدارِ مُقْتَدِرِ

تباطأتْ زمناً. واستعجلتْ زمناً

حتى غدا زمني سَجّادةَ الإبَرِ

وآشـهـرتْ كَـفـنـاً. واسـتـبـدلـتْ كـفـنـاً

وسـوَّغـتْ كـفـنـاً مـن جـلـد مُـحْـتَـضَـر

وأوغـلـتْ فـي خـطـايـا الـدمّ. لائـمـةً

أنّـي صـرخـتُ بـهـا: يـا نـكبـةُ اخـتـصـري!

لا. لـن تمُـري عـلـى روحـي وفـي جَسَدي

إلا لـيـولـدَ طـفـلٌ يـقـتـفـي أَثَـري

ويـوقـظُ الـنـارَ مـن غـيـبـوبـةٍ بَـهَـظَـتْ

رمـادَ عـنـقـائـهـا بـالـصـمـتِ والـضَّـجَـرِ

يـا لـعـنـةَ البـغـي. أعـطـي الـبـغـيَ بُـغْـيـتَـهُ

بـمـا اشـتـهـيـتِ. ولا تُـبـقـي. ولا تَـذَري

مشيئةُ الدم أن يختار كوكبُهُ

مدارَهُ. ومداري في الثرى العَطِر

أنا بلادي. وبي منها بدايتُها

ولي نهايتُها. وِرداً على صَدَرِ

أنا بلادي. فجاجُ "النقْب" خاصرتي

و "كرملُ الله" صدري. والمدى بَصَري

وما "الجليلُ" سوى وجهي. فهل شَخَصَتْ

عينٌ تُطالعُهُ. إلا رأتْ صُوَرِي؟

أَنا بلادي، فمنذا مُبْلِغٌ خبري

لقوم لوط، ترى مَن مُبْلِغٌ خَبَري؟

عـلـى "سـدومَ" سـديمٌ مـن غـوايـتـهـا

وفـي "عـمـورةَ" عُـرسُ الـسَّـادر الأشـر

خـمـسـونَ مـجـزرةً. خـمـسـونَ مـقـبـرةً

من سـيـرةٍ أُقـحـمـتْ بـالـنـارِ فـي الـسِّـيَـرِ

وقـومُ لـوطٍ سـكـارى خـمـرةٍ عُـصـرتْ

مـن بـؤبـؤيَّ. ومـن قـلـبـي. ومـن ثَـمـري

خـمسـون حـبـلاً عـلـى عـنْـقـي وفـي رئـتـي

خـمسـون نـصـلاً فـمـا لـلـمـوت لـم يَـزُرِ؟

خـمـسـونَ سـجـنـاً.. ودوريٌّ أُراودُه

يـدنـو ويـنـأى عـلـى شـكٍّ وفـي حَـذَرِ

خـمسـون دهـراً. يـلـى، فـي بـرهـةٍ عـبـرتْ

ثُـســاومُ المـوتَ عـن أوجـاعِ مُـصْـطَـبـر

وتـصـطـفـيـنـي بـشـيـراً صـوتُـهُ دَمُـهُ

وحُـلْـمـه قَـمُـهُ المـنـذورُ لـلـسُّـوَرِ

يـا قـومَ لـوطٍ. ويـا قـومـي، أقـولُ لـكـمْ

أرى بـقـلـبـي، أرى بـالـلـمـس والـنَّـظَـر

أرضُ الـعـجـائـبِ لـم تـنـضـبْ عـجـائبـهُـا

ولاَ تـنـكَّـرَ عَـفْـوُ الـلـه لـلـبَـشَـرِ

وتـهـمـسُ الـقـدسُ فـي قـلـبـي نـبـوءَتَـهـا

ويُـشـمـسُ الـقـلـبُ.. ميـعـاداً مـع الـقَـدَر

ويُشرقُ اللهُ في روحي. ويُشرقُ في

سِرِّ اليقينِ، يقينٌ غيرِ مُستَتِرِ

بنى المسيحُ على صَخْرٍ كنيسَتَهُ

ودولتي. أنا أَبنيها على حَجَرِ!

(ألقيت للمرة الأولى في مهرجان صفورية - أيار ١٩٩٨)

صولوا وجولوا

صُـولـوا كـمـا شـاء الـضـلالُ وجُـولـوا

حـطـبُ الجـحـيـمِ الـسّـادرُ الـضـلِّـيـلُ

يـا أيـهـا الـضـعـفـاءُ فـي جـبـروتـكـم

كـــم ذا أذلَّ الـــقـــاتـــلَ المـــقـــتـــولُ

يـا أيـهـا الـفـقـراءُ فـي إثـرائـكـم

كـنـزُ الـوجـود ضـمـائـرٌ وعـقـولُ

وخـطـاكُـمُ قَـصُـرت وطـال طـريـقـكـم

والـظـلـمُ صـكٌّ والجـنـونُ كـفـيـلُ

ومـنـاحـةٌ لـيـلـيَّـةٌ أحـلامُـكـم

ولـدى الـنـهـار فـظـائـعٌ وعـويـلُ

مـن أي مـاضٍ تُـقـبـلـون بـحـاضـرٍ

يـغـتـالـهُ المـسـتـقـبـلُ المجـهـولُ

ولأي أفـق تـرحـلـون وسـخـطـكـم

حـمـأٌ عـلـى أُفـق الحـيـاة يـسـيـلُ

الـقـتـلُ كـي تـرثـوا الـقـتـيـلَ سـبـيـلُـكـم

تَـبًّـت يـدٌ ورثـت وتـبَّ سـبـيـلُ

مـجـد الـدم المـسـفـوك نـورٌ خـالـدٌ

وسـتـخـلـدون ومـجـدكـم قـابـيـلُ

لا تحـسـبـوا الـقـتـلـى حـصـاداً سـائـبـاً

دمـعُ الـيـتـيـم حـجـارةٌ سـجّـيـلُ

يـا مـن غـرسـتُـم فـي الـقـبـور مـنـازلاً

وعـلـى الـضـحـايـا الـرقـصُ والـتـهـلـيـلُ

تـبـنـون؟ أحـجـارُ الـبـنـاءِ تـضـجَّـرَتْ:

لـلـعـار بـيـتٌ بـالـخـنـا مـأهـولُ

عـجـبـاً لأشـداقٍ تَـدِرُّ عـدالـةً

أمـا الأكـفُ فـمـخـلـبٌ مـسـلـولُ

ولَـكَـمْ بـكـيـتـمْ فـي الـورى حـريـةٌ

وبـلادُنـا فـي لـيـلـكـم بـاسـتـيـلُ

والـثـائـر الـقـدّيـسُ صـار "مـخـربـاً"

فـي عـرفـكـم والخـاتـلَ المخـتـولُ

عـجـبـاً عـجـابـاً كـيـف فـي نـامـوسـكـم

يـتـمـاثـل الـتـحـريمُ والـتـحـلـيـلُ

بـاسـم الـسـمـاءِ تـدنّـسـون سـمـاءنـا

وكـأنمـا الـفـاتـوم جـبـرائـيـلُ

وإذا غـدا الـتـلـمـودُ حـكـمـاً نـاجـزاً

مـا يـفـعـل الـقـرآنُ والإنجـيـلُ؟

سُدّوا علـى الـشـمـس الـنـوافذ، حـسـبُـكـم

هــذا الــظــلامُ الــســابــغُ المــســدولُ

وخــذوا مــن الــفــولاذ عــجــلاً قــاتــلاً

صــلّــوا لــه، اهــتــزوا لــديــه ومــيــلــوا

جــرحــي أبــو الــوطــن الجــريــحِ وأمُــهُ

ودمــي لــديــه مــواســمٌ وفــصــولُ

والــقــيــدُ طــقــسٌ والــعــذابُ عــبــادةٌ

والــذلُّ دَيْــنٌ والــرحــيــلُ حــلــولُ

بــدويــةٌ فــي الــنَــقْــبِ تــلــك شــقــيــقــتــي

وابــنــي المــثــلــثُ والحــفــيــدُ جــلــيــلُ

والـقـاسـطـون الـطـارئـون طـحـالـبٌ

وجـذورُ روحـي زنـبـقٌ ونـخـيـلُ

أنـا نـطـفـةٌ أبـديـةٌ ولـيـنـتـثـر

أيـدي الـريـاح الـزور والـتـدجـيـلُ

قـاسٍ يـقـينُ الحـرّ، قـاسٍ أنـهُ

أغـضـى الـيـقـينُ وكـابَـر الـتـأويـلُ

وأمـرُّ مـن كـأسِ الحـمـام قـتـيـلـةٌ

فـي شـعـرهـا المحـلـول نـام قـتـيـلُ

وأصـيـحُ مـن غـضـب أصـيـحُ ولـوعـةٍ

عـارُ الحـضـارةِ شـعـرُكِ المحـلـولُ

وطني، فلسطيني، فمي ولواعجي

يفديكَ يومي والغدُ المأمولُ

هل عاش جيلٌ للشهادة والفدا؟

لا ضيرَ، سوف يعيش عرسكَ جيلُ

ما غادر الشهداءُ صدرَك عارياً

لكنّ ظهركَ خاذلٌ مخذولُ

دولٌ إذا نطقتْ بدت عربيةً

وفعالُها عَجَمٌ وإسرائيلُ

لكنها حالٌ تحولُ وإنها

دولٌ تدولُ ويحصُلُ التحصيلُ

قـطـعـانَ جـلاّدي! اقـضـمـي وتجـشـأي

كَـلأ الـردى.. طَـرْفُ الـرعـاةِ كـلـيـلُ

ودهـورهـم يـوم الحـسـاب هـنـيـهـةٌ

وحـسـابُـهـم عـبْـر الـدهـورِ طـويـلُ

وعـلـى ضـجـيـجِ الأرضِ دَوَّت صـيـحـةٌ

وعـلـى أجـيـج الـشـمـس قـامَ دلـيـلُ

يـا آخـر الحـكـام! أولُ حـكـمـةٍ

أن المـشـيـئـةَ سـاعـدٌ مـفـتـولُ

ومـشـيـئـة الانـسـانِ زهـرةُ طـفـلـةٍ

يَـبْـلـى عـلـيـهـا الـصـارمُ المـصـقـولُ

يـــا آخـــر. الحـــكـــام، صـــمـــتـــاً، إنـــه

عـــدلُ الحـــيـــاة مـــدى الحـــيـــاة قـــؤولُ

فاســتــغــلــقــوا واســتــغــرقــوا واســتــبــســلــوا

واســـتـــرســـلـــوا وتـــطـــاولـــوا وأطـــيـــلـــوا

مـــهـــمـــا اعـــتـــصـــمـــتـــم بـــالـــجـــيـــوش قـــويـــةً

ولـــدي عـــلـــى أقـــوى الجـــيـــوش يـــبـــولُ

ورســـالـــة الأحـــيـــاءِ يـــســـطـــع نـــورهـــا

فـــوق الـــديـــاجـــر، والـــشـــهـــيـــدُ رســـولُ

والمـــوعـــدُ المـــيـــمـــونُ: قُـــدْسٌ حـــرَّةٌ

مـــلءَ الـــزمـــانِ وغـــزّةٌ وخـــلـــيـــلُ!

(قصيدة الشاعر في حفل تأبين الشهيد فهد القواسمي في قاعة الكلية الابراهيمية– القدس العربية المحتلة ٢٢ شباط ١٩٨٥).

شــرف العائلـــة

تـقــولُ : " أحــبــك مــن كـل قـلـبـــــي ! "

وتجــذبُ خــاصــرتـــي الجــافِــلـــهْ

فـــأهــرب مـنـك الــى كـهـفِ رُعـبـــي

وألجـــأُ لـــلـــدمـــعـــة الـــذاهِـــلـــه

وتـــعـلـمُ أَنـك بـســـتـانُ حُـبَـــــي

ومــا تــشــتــهــي وردتـــي الــذابــلـــهْ

ولـــكـــنّ جـســمـــيَ ســاحـــةُ حـــرب

يـســمّـونـهـا "شـرفَ الـعـائـلـــة"

تـبـشـرنـي بـحـيـاةٍ سـعـيـدة

وتـفـتـحُ بـاسـمـي بـلاداً جـديـدة

وتـنـثـرُ تحـت خـطـايَ الـنـجـوم

وتُـقْـسـمُ بـالحـبِّ أنـي الـوحـيـدة

أجـلْ يـا حـبـيـبـي . أصـدِّقُ.لـكـنْ

إذا مـا ضَـعُـفْـتُ أصـيـر شـهـيـدة

يـحـنّـي دمـي مـذبـحـاً مـن عـظـامـي

يـسـمّـونـهُ " شـرفَ الـعـائـلـة"

حـبـيـبـي. أُحـبـكَ مـن كـلِّ قـلـبـي

وأعـشـقُ فـيـكَ بـلادي وشـعـبـي

ولـكـنَّـهُـم حـرَّمـوا أن أراكَ

وبـثّـوا قـبـائـلَـهُـم حـول ثـوبـي

وسَـنـوا سـكـاكـيـنـهـم فـوق رأسـي

ودقـوا الـطـبـولَ وهـبّـوا لـصـلـبـي

عـلـى خـشـبـاتِ صـلـيـبٍ عـتـيـقٍ

يـسـمـونـهُ " شـرفَ الـعـائـلـهْ "

حـرامٌ عـلـيـنـا حـبـيـبـي حـرامُ

عـنـاقُ أصـابـعـنـا والـغـرامُ

صـــداقـــتُـــنـــا يـــا صـــديـــقـــي حـــرامُ

وضـــحـــكـــتُـــنـــا يـــا زمـــيـــلـــي حـــرامُ

وأجـــســـادُنـــا يـــا حـــبـــيـــبـــي حـــرامُ

وأشـــواقُـــنـــا يـــا رفـــيـــقـــي حـــرامُ

وكـــلُّ أنـــاشـــيـــدنـــا بـــاطِـــلَـــهْ

ففـي صـمـتِـنـا "شـرفُ الـعـائـلـهْ"

وكـــلُّ مـــواعـــيـــدنـــا بـــاطـــلـــهْ

فـمـن مـوتـنـا " شـرفُ الـعـائـلـهْ"

تـــقـــولُ "أحُـــبـــكِ مـــن كـــلِّ قـــلـــبـــي"

وتـــفـــضَـــحُـــنـــي الألـــســـنُ الجـــاهِـــلـــهْ

أقــولُ "أحــبــكَ مــن كــل قــلــبــي "

فــتــجــرحــنــي الأعــيُــنُ الــقــاتِــلَــة

تــقــولُ حــبــيــبــي. أقــولُ حــبــيــبــي

ويــذبــحُــنــي " شــرفُ الــعــائــلــة"..

(لحَّنها: رامي زيتون
وغنَّتها: سيدر جبران–زيتون)

حنّـــاء العـــروس

جَـلْـجـلْ بـصـفْـدك... إنـهـا صـمّـاءُ

أُمُّ الـزمـان، وبـنـتُـهُ عـمـيـاءُ

جـلـجـل، وزلـزل بـالـقـيـود عـواصـمـاً

يـزنـي بـهـا الأهـلـون والـغـربـاء

واقـبـض عـلـى الـقـضـبـان كـفـاً طـالمـا

شـبّـت، فـشـبَّ عـلـى الـهـوان لـواء

يـــا فـــارس الأغـــلال، أيـــة صـــهـــوةٍ

عـزَّت عـلـيـك؟ وهـل عـصـت أمـداء؟

رابِـطْ وقـد بـكـت المـرابـط خـيـلـهـا

واصـمـدْ، ويـأس الـصـامـديـن رجـاء

أَلـــهَـــمُّ هـــمُّـــك أمَّـــةٌ مـــوجـــوءةٌ

وهـمـومـهـم جـاكـلـين أو وطـفـاء

لا بـأس إن هـم أودعـوك سـجـونـهـم

ألحـــرُّ أنـــتَ وإنَّـــهـــم ســـجـــنـــاء

أشـبـاه أشـبـاه الـرجـال تـطـاولـوا

لـكـن لـتـقـصُـرَ مـنـهـم الحـويـاء

ألـقـيـد قـيـدك والمـكـبَّـلُ بـغـيـهـم

ومـصـيـر سـجّـانـيـك كـيـف تـشـاء

فـارفـع جـبـيـنـك لـلـسـمـاء وإنـهُ

أرضٌ عـلـى أنـقـاضـهـم وسـمـاء

أَلـسُّـمـر مـن لـهـو الـشـواطـىء أزمـعـوا

أمـراً، وأَمـرُكَ جـبـهـةٌ سـمـراء

قـبـسـتْ لـهـيـبَ الـكـادحـيـن فـضـوَأتْ

بـلـهـيـب كـدحـك ثـورةٌ شـعـواء

جـلـجـل بـصِـفـدك.. إن نـاقـوسَ الـعـلـى

رسـعٌ تـثـور وفـكـرةٌ حـمـراء

واضـرب بمـوتك مـوتـهـم واصـعـد عـلـى

سـقـط المـسـوخ وقـد بـغـى الجـبـنـاء

عـربـيـةٌ ألـفـاظُـهُـم، قـرشـيـةٌ

واذا سـبـرتَ فـروحُـهـم عـجـمـاء

ولـدى المـعـارك لا تـرى أثـراً لـهـم

ولـدى الـزعـامـة، كـلـهـم زعـمـاء

عـقـمـت حـلـومُـهُـمُ وسـاءَ مـآلـهـم

وبـخـزيـهـم يـوم الـتـراجـح بـاءوا

أقـوالـهُـم مـا صـبـحَ غـيـر صـحـيـحـهـا

وفِـعـالُـهـم مـا تـأمـلُ الأخـطـاء

هـل يـذكـر الـيـرمـوك صـولـة خـالـدٍ

أَم أَن ذاكـــرة الخـــلـــود هـــراء

ولمـن يـبـوح المـثـقـلـون ودونـهـم

نـــقـــصَ المـــريـــضُ وزادت الأَدواء

وأنـا أسـيـر الـرومِ أنـزف حـسـرتـي

وتحـزّ عـنـقـي صـيـحـتـي الخـرسـاء

للـقـدس صـلـبـانـي وجـلّـقُ شـاهـدي

وتـهـلـل الـفـسـطـاط: راحَ وجـاءوا

ودمـــي عـــلـــى الأردنِّ وردٌ ذابـــلٌ

فـمـتـى يـبـلُّ صـدى ورودي المـاء

عـمـان قـابـلـتـي ومـهـد طـفـولـتـي

سـلـطٌ وحـبـلُ الـسـرّة الـزرقـاء

والمـعـرضـون إذا شـكـوت أحـبـتـي

والأهـل أهـلـي الـسـدّج الـفـقـراء

إن يـضـربـونـي فـالـعـذاب عـذابـهـم

والـكـاسـبـون الـوزرُ والـوزراء

يـا ابن الردى والـشـمس، جُرحكَ صيحةٌ

وبـحـبـرِ جـرحـك تُكـتـب الأَنـبـاء

وعـلـى خـطـاك يُـشـجُّ لـيـلٌ بـاهـظٌ

وتـعـود فـي أجـسـادِهـا الأسـمـاء

فاخضدْ بقيدك ليلهمْ واصعد على

عتماتهم.. إنَّ الطريقَ مُضاء

ألشمس شمسُك والعروسُ جميلةٌ

والعرسُ عرسكَ.. والدَّمُ الحنّاء!!

(١٩٨٦)

أُعيـــذ الحـــق!

وَردُ الـــربـــيـــع أم الـــدَّمُ المـــتـــفـــجِّـــرُ

مـــن أيـــن لـــونـــك أيـــهـــذا المـــنـــظـــرُ؟

والـزقـزقـاتُ، مـن الـعـصـافـيـر الـتـي

عـادت، أم الـنـائـي الـذي يـتـحـسَّـرُ؟

وبمـن تـلـوذ سـنـابـلٌ حـبـلـى وقـد

ضـاع الأولـى بـذروا وضـاع الـبـيـدرُ؟

سـرٌ وجـهـرٌ والـشـجـون وفـيـرهْ

مـاذا نُـسـرّ مـن الـعـذاب ونجـهـرُ

ونجـيُـنـا الـلـيـل المُـمـلّ، وإنـه

لـيـلٌ يـطـولُ عـلـى أنـاةٍ تـقـصُـرُ..

وكـبـا الـكـلامُ فـكـل عَـيٍّ مـصـقـعٌ

وجـذا الـظـلامُ فـكـل رَذمٍ قـيـصـرُ

سَـلـسَـتْ لـكـفِّ الأجـنـبـيّ ذقـونُـنـا

وعـلـى الـظـهـورِ تـربَّـع المـسـتـعـمـرُ

فـمـن المحـيـط إلـى الخـلـيـج سـدانـهٌ

مـكـسـورهٌ.. وشَـكـيـمـهٌ لا تُـكـسـرُ

ومـن الـظـلامِ إلـى الـظـلامِ مـحـاجـرٌ

مـخـضـوبـةٌ قـهـراً وجـرحٌ يـنـغـرُ

والـدارُ.. قـيـل تـقـدَّسـتْ وتـبـاركـتْ

وعـلـى قـبـابِ الـقـدسِ وبـشٌ يـسـكـرُ

ويـبـيـح بـاسـم الـلـه كـلَ مُـحـرَّمٍ

ويـلـصُّ بـاسـم الأنـبـيـاء ويـقـهـرُ

فـلـيـسـتـجـر ربُّ الـعـبـاد بـربّـهِ

ولـيـعـصـم الـنـسَّـاكَ مـن أن يـكـفـروا

لـلـمـبـصـريـن صـوارفٌ ومـعـاذرٌ

يـا جـنَّـتـي انـتـظـري لَـعَـلِّـي أُبـصـرُ

ولـكـلٍّ مُـفـتـئـتٍ عـلـيـك بـبـاطـلٍ

يـومَ الـشـواهـد مـيـسـمٌ مـتـغـوِّرُ

طـفـلٌ يـشـدّ إلـيـه جـنَّـة أمِّـهِ

صـوِّر إذن مـا فـي غَـدٍ تـتـذكَّـرُ

وامـنـحـهُ سـكَّـرةً وداعـبْ شَـعـرهُ

يـا أيـهـذا الـقـاتـلُ المـتـحـضِّـرُ

فـبـراءةُ الـسـفّـاح عـدلٌ مـطـلـقٌ

وجـريمـةُ المـغـدور ،لا..لا تُـغـفَـرُ!

أَلـلـيـلُ طـالَ، الـلـيـل طـال، وفـرَّخـتْ

فـي الـقـلـبِ أحـزانٌ وأعـسَـرَ مُـعـسـرُ

ونمتْ على الأفقِ الرمادِ طحالبٌ

وانثال في السُّبُل الهَلامُ الأزْورُ

لكنها حالٌ تحولُ وإنَّها

دُوَلٌ تدولُ وكلُّ خافٍ يُسفِرُ

إنَّا لها، إنَّا لها، ويميننا

بعثُ الشهيد وموتنا المتكرِّرُ

إنَّا لها، دنيا تُخيِّرُ غيْرَنا

وتظلّ دنيانا التي نتخيَّرُ

ونبيُّنا طفلٌ تدثَّر بالردى

شيخاً وقام إلى الحياةِ يُبشِّرُ

غِـبَّ المُـحـول ممـضَّـةً بِـمِـطـالـهـا

شـغـفٌ عـلـى بـيـد الـضـمـائـر يُـزهـرُ

والـعـاشـقُ المـفـؤود شـعـبٌ صـائـمٌ

آلـى بـغـيـر إدام حـقٍ يُـفـطِـرُ

شـعـبٌ إذا عـزَّ الـبُـغـاةُ بـبـغـيـهـم

فـهـو الأعـزّ مـن الـبُـغـاةِ الأكـبـرُ

مـن كـلِّ راسـخـة الـيـمـين وراسـخ

قَـسـمـاً: نُـغـيـر عـلـى الـرّدى ونُـغـيِّـرُ

بـيـضُ الـقـلـوب، عـلـى الـخـنـى مـسـودّةٌ،

والأخـضـر الـغـدُ، والـلـواء الأَحـمـرُ!!

(١٩٨١)

تـــوْءَمـــان

أتـــضـــنُّ المـــنـــى بـــخـــلٌ وفـــيٌّ

حَـدَّ إمـكـانـه انـتـهـى مُـسـتـحـيـلُـكْ؟

ويـــضـــيـــقُ المـــدى بـــآيـــةِ نـــورٍ

تحـــتَ لـــيـــلٍ يـــجُـــبُّـــهُ قـــنـــديـــلُـــكْ؟

لا وربّ الجـــهـــاتِ. مـــهـــمـــا تـــنـــاءَت

عـن سـبـيـلـي خُـطـاً نمـاهـا سـبـيـلُـكْ

لـــن يـــعـــزَّ الخـــلُّ الـــوفـــيُّ مـــنـــالاً

لا ولـــن يُـــعـــوزَ الأصـــيـــلَ أصـــيـــلُـــكْ

جـئـتُ فـامـنـحْ دمـوع عـيـنـيَّ صـدراً

يـا خـلـيـلَ الـرحـمـن.. إنّـي خـلـيـلُـكْ

أظـــمـــأتْـــنـــي كـــوارث الـــدهـــرِ دهـــراً

فـلـيُـجـرنـي مـن حُـرقـتـي سـلـسـبـيـلُـكْ

وتـــأمَّـــلْ وجـــهـــي وجُـــسَّ ضـــلـــوعـــي

يـــا ابـــن أمّـــي يـــطـــلَّ مـــنـــي جـــلـــيـــلُـــكْ

هـــهـــنـــا نـــحـــن.. دمـــعـــتـــان وجـــفـــنٌ

فـلـيُـكـفـكِـفْ عـذابَـنـا مـنـديـلُـكْ

ولـنـــرتّـــلْ جـــراحَـنـــا صـــلـــواتٍ

لمـقـيـل، مـن عـثـرتـي قـد يُـقـيـلُـكْ..

هـــهـــنـــا نـــحـــنُ تـــوءَمـــان عـــذابـــاً

لا تَـسـقُـل فـــي الـــعـــذابِ عـــزَّ مـثـيـلُـكْ

جـئـتُ فـارفـد نـزيـفَ روحـي بـعـرْقٍ

يـا خـلـيـل الـرحـمـن.. إنّـي خـلـيـلُـكْ!

(١٩٩٣)

القصيـــدة الشاميـــة..

ظَـمـــيءٌ. وأنـــت الـكـــأسُ والـصـــهـبـــاءُ

يـــا شـــامُ، فـلـــيـــتـحـلّـــقِ الـــنـــدمـــاءُ

حَـكَـم الـقـضـــاءُ بـغـربـــةٍ مـغـبـونـــةٍ

فـقـضـــى الـكـفـــاحُ بـــأن يـــتـــمَّ لـقـــاءُ

وأتـيـــتُ. لا مـــتـــســـلّـــلاً مـــتـــخـــفـيـــاً

لـــكـــن بمـــا يـــتـــخـــيَّـــلُ الخُـــيـــلاءُ

شـفـتـي مـنـصَّـةُ أمـتـي. وهـديـرهـا

نـــورٌ تـــراهُ الأعـــينُ الـــعـــمـــيـــاءُ

لـبَّـيْـكِ! هـا أنـذا أعـانـقُ إخـوتـي

ظـمـئـاً يـسـاقـيـه الـعـنـاقَ ظِـمـاءُ

أوَمِـن مـلامٍ لـو عَـصَـبـنـا جُـرحـنـا

وَحَـنـتْ عـلـيـنـا لـيـلـةٌ قـمـراءُ؟

لـي فـيـكِ مـن فـجـر الخـلـيـقـةِ مـجـلـسٌ

ثـمـلـتْ بـطـيـبِ أريـجِـهِ الأرجـاءُ

وبـغـيـرِ قَـوْح الـعـزِّ فـي جَـنَـبـاتـهِ

ضَـنَّ الـلـسـانُ بـأنـكِ "الـفـيـحـاءُ"

وانـفـضَّ مـجـلـسُـنـا بـقـدرةِ قـادرٍ

وعـلا عـلـى أقـدارنـا الـضـعـفـاءُ

بـيـضٌ صنـائِـعُـنـا.. وسـاءَ صـنـيـعُـهُم

سـودٌ وقـائـعُـنـا. وبـي سـوداءُ

خُـضـرٌ مـرابـعـنـا.. وأفـقـي قـاحـلٌ

وهُـمُ المـواضـي.. مـن دمـي حـمـراءُ

وغـدوتُ فـي وطـنٍ كـأنّ تـرابَـهُ

"صـخـرٌ".. وماء عـيـونـه "الخـنـسـاءُ"

وأتـيـتُ بـي وجـعٌ أبـثُّـكِ بـعـضـهُ

فـعـسـى تـخـفّـفُ وطـأةُ صـعـداءُ..

مـن جـمَّـعَ الأضـداد حـولَ تـخـومـنـا

فـبـغـى الـبـغـاةُ وعـربَـدَ الـدخـلاءُ؟

وبـأيّ قـسـطـاسٍ يـراجـحُ عَـدْلَـنـا

وحـشُ الـبـحـارِ، وحـيّـةٌ رقـطـاءُ؟

قـدرتْ عـلـى الـوَهَـن المـكـبَّـل قـدرةٌ

وعـنـا لـتـجّـارِ الـدمِ الـفـقـراءُ

وسـلـمـتِ لـي يـا شـامُ دون سـلامـتـي

ومـكـثـتِ. فـلـتـتـبـدَّلِ الأنـبـاءُ

غـبَـرتْ أمـيّـةُ فـي زمـانٍ غـابـرٍ

لا بـأس أنّـا الـصـفـوةُ الجُـلـسـاءُ

صبَّي حُميَّا المجدِ في لهواتنا

قَلَكَم عَطشنا، والخنا سقاءُ

كَرُمتْ أصولٌ أنتِ بعضُ فروعها

فلْتنضج الأثمارُ كيفَ تشاءُ

أهلٌ. ونعم الأهل. كانوا وانقضوا

سُنَنَ الحياةِ. وها همُ الأبناءُ

ياشامُ. جئتُ. فلا ترَيني مفرداً

في مهجتي أهلُ العروبةِ جاءوا

عَسُرتْ على كِبْر الأكابِرِ وَحْدةٌ

عسرتْ.، فيسَّر أمرها البسطاءُ

مـا شـئـتـت شـمـل الـعـروبـةِ زعـزَعٌ

إلا ولّـتْ شـمـلـهـا نـكـبـاءُ

وتحـاكُ مـن مِـزَق الـشـعـوبِ حـبـائـلٌ

وعـلـى الـهـوانِ تُـبـجَّـلُ الأهـواءُ

ينـمـو عـلـى عـودِ الـنـمـيـمـةِ مـفـسـدٌ

بمـشـيـئـةٍ مـن قـيـصـرٍ مَـشّـاءُ

ويـقـوم فـي لـيـلِ المـقـابِـرِ قـائـمٌ

وعـلـى المـنـابـر يـلـغـطُ الخـطـبـاءُ

يـعـظـونَ بـالـحـسـنـى. وأحـسَـنُ وعـظِـهـم

أنْ: فـرِّقـوا مـا جـمَّـعَ الآبـاءُ!

والـشـرُّ عـلـمُ الـغـربِ قُـبِّـحَ عـالمـاً

والخـيـرُ دولارائـهُ الخـضـراءُ!

ويـعـلِّـمـونَ بـجـهـلـهـم عـلـمـاءَهـم

لـيـقـال فـي جـهـلائـهـم: عُـلـمـاءُ

بـاسـمِ المـذاهـبِ يـحـشـدون حـشـودَهـم

ومـع المـذاهـبِ تـذهـبُ الآراءُ

سـنـيَّـةٌ. شـيـعـيّـةٌ. عـلـويَـةٌ.

درزيّـةٌ. والمـؤمـنـونَ سـواءُ

قـبَـسـوا مـن الـقـرآن ضـوءَ قـلـوبـهـم

ومـن الأنـاجـيـل اسـتـقـوا فـأضـاءُوا

أيَـضـيـرُ تـغـلـبَ أن نـصـرانـيَـةٌ

وَلـدتْ. فـكـانَ الإخـوةُ الخُـلَـصـاءُ؟

أصـلابُ يـعـربَ لـم تـلـدنـا خـلـسَـةً

لـو أنـكـرتـنـا دايـةٌ شـمـطـاءُ

عـربـيـةٌ غـايـاتـنـا. عـربـيـةٌ

رايـاتـنـا يـا أيـهـا الـفـقـهـاءُ

نـحـنُ المـسـمَّـى. والمـسـمّـى واحـدٌ

عـربٌ.. إذنْ فـلـتـكـثُـر الأسـمـاءُ!

يـا شـامُ. أعـلـمُ أنَّ قـلـبـي زاعـمٌ

مـا لا يُـقـرُّ الـسـادةُ الـزعـمـاءُ

لـــكـــنَّ بـــي نـــاراً أســـرُّ أوارَهـــا

لأجـــنَّـــة. ســـتـــكـــونُ لا مـــا شـــاءوا

يـــا شـــامُ أعـــلـــمُ أنَّ عـــمـــري عـــابـــرٌ

حـــبـــراً عـــلـــى ورقٍ. وسِـــفـــري المـــاءُ

وأصـــيـــحُ مـــن وجـــعٍ. فـــهـــل مـــســـتـــكـــثَـــرٌ

لـــلأمِّ فـــي أبـــنـــائـــهـــا إصـــغـــاءُ؟

نـــاديـــتِ. لـــيَـــتـــكِ الجـــوارحُ. قـــبـــلَـــمـــا

أذنَ الـــعـــذابُ بـــأن يـــكـــونَ نـــداءُ

نـــاديـــتِ. هـــا أنـــذا جـــنـــونـــي واضـــحٌ

لاهـــنـــدُ فـــاتـــنـــتـــي. ولا وطـــفـــاءُ

نَـصَـبَ الـهـوى مـيـزانَـهُ. وتـسـاءَلـوا

مـا كـقَـتـاهُ؟-أنـت والـشـهـبـاءُ

نـاديـتِ. هـا أنـذا. جـنـونـي فـادحٌ

أرضٌ تـضـيـقٌ بـلـفـحِـهِ وسـمـاءُ

مـجـنـونُ لـيـلـى واحـدٌ بـعـذابـهِ

وأنـا. عـذابـي أمَّـةٌ لـيـلاءُ!

لـو مـسَّ قـاهـرةَ المـعـزِّ مـعـكِّـرٌ

صـفـواً، هـلـعـتُ: وكـيـفـهـا صـنـعـاءُ؟

وإذا بـكـتْ بـغـدادُ ألحـفَ هـاجـسٌ

قـدسـاهُ! يـا قـدسـي. أفـيـكِ بُـكـاءُ؟

وأهـيـمُ وجـداً. غـيـرَ مـا وَجِـدَ الـورى

ولـدى جـنـونـي يـبـرأ الـعـقـلاءُ!

وسـواي يُـثـري: ثـروةً أو ثـورةً،

وبـغـيـر "مـال الـشـام" مـا الإثـراءُ؟!

شـامـيّـةٌ هـلَّـت. فـأنـكَـرَ شـانِـيءٌ:

"من تلك؟". قلتُ: حبيبتي الحسناءُ!

شـامـيّـةٌ. نـطـقـتْ فـصـيـحَ جـمـالـهـا

نُـطْـقـاً تـلـعـثَـمَ دونَـهُ الـبُـلَـغـاءُ

"شـقـراءُ". قـالـوا. قـلـتُ ذلـك سـرُّهـا

شـقـراءُ.. لـكـنْ روحُـهـا سـمـراءُ!

قـبَـلْـتُـهـا زقَّ الحـمـامِ، فـقـبّـلـتْ

قـلـبـي. وبـان الـسـرُّ والإسـراءُ

وهـتـفـتُ: لـو جـنّـاتُ عَـدْن أقـفـرتْ

ممَّـن نـحـبُّ، فـإنـهـا جـرداءُ!

نـزَّهـتُ قـلـبـي عـن غـرامٍ زائـلٍ

فـقـسـا عـلـيَّ الحـبُّ والـبـغـضـاءُ

وقـسـا عـلـى سـقـط الـلـواعـج لاعـجـي

فـقـسـا عـلـيَّ الأهـلُ والـغـربـاءُ

وقـسـوتُ. حـتـى لا تـلـين قـصـائـدي

إلا لـصـدقٍ.. ظـنّـهُ الـشـعـراءُ!

وأنـــا أســـيـــرُ الـــروم. طـفـــلٌ ضـــائـــعٌ

ضـــاقـــت بـــه الـــسَـــرّاءُ والـــضّـــراءُ

مـــن قَـبْـــل يُـتـــم الـوالـديـن تـــيـــتَّـمـتْ

لـــغـــتـــي. وضـــاعَ الإرثُ والـــورثـــاءُ

كـسـروا جـنـاحَ طـفـولـتـي وتـسـلّـقـتْ

كـنـفـي المـهـيـضَ أشـاوسٌ فُـصَـحـاءُ

وهـــوامـــشٌ عـــربـــيـــةٌ قُـــرشـــيَّـــةٌ

ومـــتـــونُـــهـــا رومـــيّـــةٌ عـــجـــمـــاءُ

وشـــوارِبٌ شـــمّـــاءُ قـــحـــطـــانـــيـــةٌ

يـــا شـــامُ. لـــكـــنَّ الـــوجـــوه طـــلاءُ

فـيـــهـــم مـــن الـــفـــرســـانِ كـــلُّ مـــفـــوَّهٍ

ومـــن الـــســـلاح، قـــصـــائـــدٌ عـــصـــمـــاءُ

صـــالـــوا وجـــالـــوا فـــي ثـــيـــابِ نـــســـائـــهـــم

واســـتـــأنـــســـوا إذ حـــمـــحـــم الأعـــداءُ

قـــالـــوا الجـــهـــادَ عـــلـــى غـــزاةِ ربـــوعـــنـــا

والـــفـــعـــلُ، حـــربٌ بـــيـــنـــهـــم شـــعـــواءُ

ويـــنـــزُّ جـــرحـــي صـــارخـــاً. وتـــصـــمُّ عـــن

جـــرحـــي الـــبـــلـــيـــغ الـــصـــخـــرةُ الـــصـــمّـــاءُ

ويـــطـــلُّ صـــوتـــكِ آســـيـــاً بـــجـــراحـــهِ

وتَـــهـــلُّ كـــفـــكِ هـــذه الـــســـمـــحـــاءُ

نـاديـتِ. فـاسـتـبَـقـتْ نـداءَك لـهـفـةٌ

فـيـهـا الـتـقـى الأحـرارُ والـسـجـنـاءُ

نـاديـتِ. جـئـتُ ولـم أجـيء. فـتـأمَّـلـي

وجـهـي يُـطـلَّ رجـالُـكِ الـقـدمـاءُ

أنـا مـن هـنـاك. ومـن هـنـاك. ومـن هُـنـا

بمـوالـدي تـتـجـدَّدُ الـصـحـراءُ

لـم يـغـتـنـم جـسـدانِ مـضـجـعَ يـعـربٍ

إلا وكـانـت نـطـفـتـي الـعـربـاءُ

وقـضـى ورائـي ألـفُ دهـرٍ ألـيـلٍ

لـم يـقـضِ فـيـهـا كـوكـبـي الـوضّـاءُ

أقبلتُ.. يحملني حنينٌ جارحٌ

مدّي يديك فأدمعي حنّاءُ

لكِ فيَّ من سفح الجليلِ زنابقٌ

سوداءُ، في عُرفِ الهوى بيضاءُ

رشفتْ من الجولانِ قبلةَ نسمةٍ

أنفاسُها ما حشرجَ الشهداءُ

وتحيةٌ عربيةٌ سوريةٌ

يحيا بها أبناؤكِ الشرفاءُ

الأوفياءُ سريرةً ومسيرةً

يوم التوَتْ سُبُلٌ وعزَّ وفاءُ

والـنـــاهـــضـــون وفـــي الأكـــفِّ بـيـــارقٌ

لـــم يـــطـــوهـــا الإرغـــاءُ والإغـــراءُ

لـــكِ فـــيَّ بـــاقـــةُ لـــوعـــةٍ، فـتـســـاءَلـــي

مـــا عـــطـــرُهـــا؟ أزنـــابـــقٌ؟ أدمـــاءُ؟

وخـــذي يـــديَّ إلـــى يـــديـــكِ. وهـــدهـــدي

جـــرحـــاً، لـــه فـــي أن ســـلـــمـــتِ شـــفـــاءُ

ســـفـــري طـــويـــلٌ. والمـــســـالـــكُ وعـــرةٌ

وتـــعـــبـــتُ. حـــتـــى ارتـــاحـــت الـــوعـــثـــاءُ

ظَـمِـــيءٌ أنـــا. أَشـــفـــي الـــغـــلـــيـــلَ بـــبـــلّـــةٍ

يـــا شـــامُ! ولـــيـــتـــحـــلَّـــق الـــنـــدمـــاءُ!!

(١٩٩٦)

ألقصيــدةُ اللبنانيّــة

لا تـأسَ. حـالـك فـي المـواجـعِ حـالـي

ولـديـكَ. يـا سـنـدي. جـوابُ سـؤالـي

لو صحتُ "مالي والعذاب" لَصحتَ من

جُبِّ الرَّدى "ما للعذاب ومالي؟"

غـربـي وشـرقُـكَ شُـرفـتـا قـنّـاصـة

وَجـنـوبـك الـدامـي جـبـينُ شـمـالـي

كُـلُّ الجـهـات تـقـاسـمـتْ أشـلاءَنـا

والأهـلُ شـأنُ نـعـامـة ورمـال

شـعـبٌ. شـعـوبٌ. فـي الشِّعـاب تـشـعَّبـوا

شُـعَـبـاً. ومـا شـبـعـوا مـن الإذلالِ!

خَـطَبـوا. فـمـا وَسـعَ الـفـصـاحـةَ منـبـرٌ

وتـلـعـثـمـوا فـي سـاحـة الأفـعـالِ

أهـلٌ. تـخـلَّـى الـلـهُ عـن أصـلابـهـم

لا كـانَ مـا آلـوا إلـيـه مـآلـي

نـسـجـوا بمـنـوالـي الـبـيـارقَ. وادَّعَـوا

بـعـض الـبـريـق. وأحـرقـوا مـنـوالـي

ونـهـضـتُ مـن مـوتٍ. فـلامـونـي وقـد

خَـسِـروا رثـاءَ شـجـاعـتـي ونـضـالـي!

لـبـنـانُ. يـا ابـن أبـي وأُمـي. بـاعـنـي

يـا عـمّ. عَـمُّـكَ. يـومَ بـاعَـكَ خـالـي

كـنّـا. وكـنـتَ. وكـنـتُ. سـاحـة دبـكـةٍ

وفـتـىً يـطـيـرُ وراءَ رقَّـة شـال

أسـكـرتَ بـالـعـرق الحـلال مـطـالـعـي

ومـلأتَ مـن عـنـب الجَـمـال سِـلالـي

وعـلـيـكَ مـن حَـبَـقـي مِـلاءَة سـهـرةٍ

وعـلـيَّ مـنـكَ عَـبـاءَةُ الأزجـال

قـلـبـان مـن عَـرَبٍ. ومـن ذهَـبٍ ومـن

طَـرَب. أعـانـا واقـعـاً بـخـيـال

كـم أرزَةٍ مـالـت عـلـى زيـتـونـةٍ

وعـريـشـةٍ. حـنَّـتْ إلـى عـرزالِ

لـكـنَّـهُـم قـدمـوا. بـخـيـل خـرافـةٍ

صـكَّـتْ سـنـابـكُـهـا شـمـوخَ جـبـالـي

كـسـروا سـيـاج حـديـقـتـي وئـعـلَّـقـوا

بمـشـاجـبـي. واسـتـوطـنـوا سـروالـي!

وتـقـاسـمـوا ذهَـبَ الـعـروس غـنـيـمـةً

وتـهـافـتـوا نـبـشـاً عـلـى أطـلالـي

قدمـوا بـأجـنـحـة الجـحـيـم. وَأشـعـلـوا

وَجَـع الـنـوى فـي سَـحْـبَـة المـوّال

واسـتـمـرأوا حُـلـمـاً يـراودُهـم بـأن

ضـربـتْ صـلـيـبـي ريـحُـهُـم بـهـلالـي

وصـحـوا. فـمـا قـانـا الجـلـيـل مـتـيـحـةٌ

خـمـراً.. وفـي قـانـاكَ كـأسُ مُـحـالِ

والحال. مـا اجـتـرحـتْ عجـائـبُ سِـحْـرهـم

إلا عـجـائـبَ مـن دمٍ وضـلالِ..

لـبـنـانُ. أنـفـاسُ المحـبِّ وديـعـةٌ

وهـواكَ يـطـلـبُ شـهـقـةَ الـزلـزالِ

وأنـــا عـــلـــيـــلٌ بـــالحـــنـــين إلـــى يـــدٍ

نـــعـــنـــاعـــة مـــشـــكـــورة الأفـــضـــال

وأتـــوقُ لـــوصـــنّـــينُ يُـــهـــدي قُـــطـــنـــةً

مـــن ثـــلـــجـــهِ. لـــلـــجُـــرح فـــي عـــيـــبـــالِ

وفـمـي عـلـى رمـل الـصـحـارى قـبـلـةٌ

ظـمـئـتْ. ولَـيـسَ سـوى مـنـاهـل آلِ

ويـدايَ خـلـفَ الـظَّـهـرِ شـوقٌ جـامـحٌ

والحـــزنُ بـــابٌ مُـــحـــكَـــمُ الإقـــفـــالِ

يـسـطـو الـعـبـيـدُ عـلـى جُـذى حُـرِّيَّـتـي

فـــأجـــرُّ تحـــت رمـــادهـــم أغـــلالـــي

أنــذا أســيــرُ الــرومِ. جــلــدي بُــرْدُهــم

وســيــاطُــهُــم لــهــبٌ عَــلــى أســمــالــي

وأطــلُ مــن زنــزانَــتــي لأرى عــلــى

قــســمــات وجــهــكَ مــحــنــتــي وهُــزالــي

وأرى زهــورَ دمــي ربــيــعــاً ذابــلاً

يــبــكــي.. وَتــضــحــكُ زهــرةُ الــصَّــلــصــالِ

لــبــنــانُ. ألــقِ إلــى المحــبِّ جــديــلــةً

مــن أرزِ بَــوْحــكَ لــلــنــهــارِ الــعــالــي

شــوقــي إلــيــكَ يــهــيــجُــهُ خــوفــي عــلــى

شــوقــي إلــيــكَ مــن الــعــذاب الــتــالــي

وعـلـــى ســفـــوحـــكَ إخـوةٌ وأحـــبَّـــةٌ

فـــي الـبـــال يـوم فـراقـــهـــم. فـــي الـبـــال

سَـأَلـوا فـقـيـلَ رحـيـلُـكُـم يـومٌ. ومـا

عَـلـمـوا بـيـومٍ فـاضَ عـن أجـيـالِ

شـاخـوا. وشـحْـنـا فـي الـزمـان. ولـم نَـزَل

فـي الحُـلـم صـبْـيَـةَ روضـة الأطـفـالِ!

أَهـلـي ضـيـوفُـكَ. والـعـيـونُ بـصـيـرةٌ

وقـصـيـرةٌ أيـدي المُـضـيـف. خَـوالِ

فـاغـفـرْ وقـد طـالـتْ عـلـيـكَ ضـيـافـتـي

واصـبـرْ عـلـى المـقـسـوم مـن أهـوالـي

لـي خـلـفَ أُفـقـكَ نجـمـةٌ مـيـعـادُهـا

أَجَـلْ يـصـارع لـعـنـةَ الآجـال

لـبـنـانُ. يـا ابـنَ أبـي وأُمـي. إنـهـا

كـأسٌ وتـعـبُـرُ.. حـنـظـلـي ورُلالـي

ويـكـونُ مـا سـيـكـونُ. لـبـنـانـيّـةٌ

تـلـدُ المـسـيـحَ. بـحـطَّـتـي وعـقـالـي

ويـكـونُ مـا سـيـكـونُ. تُـبـعـثُ مـكَّـةٌ

مـن مـكَّـةٍ.. ويـعـودُ صـوتُ بـلالِ

ويـكـونُ مـا سـيـكـونُ. يـبـرأُ يـعـربٌ

مـن عُـقـمـه.. ويـعـجُّ كـلُّ خـالِ

ويـــغـــيِّـــرُ الأحـــوال عـــدلُ دمـــائـــنـــا

ونـــرى المـسَـمَّـى الحـــيَّ فـــي أسـمـائـنـا

وتـضـــيءُ شـمـسُ الـلـه مـجـد سـمـائـنـا

لـــبـــنـــانُ. نـــحـــنُ مـــغـــيِّـــرُ الأحـــوالِ!

(١٩٩٧)

ألقصيـــدة العُمانيـــة

(في رحلته الأولى إلى سلطنة عُمان، كان على سميح القاسم أن يمكث أكثر من تسع ساعات في ترانزيت المطارات، من اللد إلى عمّان إلى دُبيّ إلى مسقط. وعبر انتقالاته هذه سكنه هاجس تراثيّ ولّدته لديه تجربة العودة إلى ساعد الأُمّ الصحراء، وإلى الساحل العمانيّ المجيد العريق، على مخارج خليج عُمان وبحر العرب، ومداخل الربع الخالي الرائع الرهيب الرحيب. وتبلورت في هذا الهاجس أبيات القصيدة التي منحها صاحبها اسم "ألقصيدة العُمانية"، احتفالاً بعودته إلى منابته الأولى في شبه جزيرة العرب، قبل نيف وألف عام.. وقد سجّل تلفزيون سلطنة عُمان هذه القصيدة بصوت الشاعر).

طَـفْـحُ الـثـلـوجِ. ولَـفـحـةُ الـنـيـرانِ

قِـسـطٌ. ومـيـراثُ الـرَّدى قِـسـطـانِ

وأنـا الـوريـثُ. حـمـلـتُ نـعـش طفـولـتـي

شـلـواً يـتـيـمـاً ظَـنَّـهُ أبَـوانِ

وأقـمـتُ حُـرّاً فـي الـسـجـونِ. ولـم أزلْ

حُـــرّاً. وقـيـدي مُـثـقـلٌ سـجّـانـي

كـثُـرتْ عـلـيَّ مـن الـنـوازِلِ طُـغـمـةٌ

كـثـرتْ وقـلَّ عـلـى المـكـانِ مـكـانـي

ووقـفـتُ لـلـنـكـبـاتِ. صـدراً عـالـيـاً

ويـداً تُـشـيـرُ لـيـعـبُـرَ الحَـدَثـانِ(*)

مـتـوحّـداً بـيـن الـنـهـارِ ولـيـلـهِ

وزمـانُ أهـلِ الأرضِ غـيـرُ زمـانـي

يَـوْمـي عـلـى الألـوانِ شَـقّ. وإنّـنـي

خـمـسـونَ حَـوْلاً لـم تُـحِـلْ ألـوانـي

واستبدلتْ حولي اللغاتُ وجوهَها

والوجهُ وجهي. واللسانُ لساني!

لكنَّ بي وَجَعاً أُكفكِفُ نارَهُ

بعْدٍ. وأمسي مُشْعلٌ أحزاني

أمسي. وتنزو في ضلوعي غُصَّةٌ

كَظَمتْ، وقاراً، غُصَّةَ البُركانِ

لو لم يكنْ أهلي سبايا يأسِهِم

لَيَئستُ من ناري وَصَبْرِ دُخاني

أو لم يكن أهلي ضحايا بؤسهم

لشكوتُ ما اقترفوهُ من حِرْماني

هَـجَـروا المـهـادَ وطـفـلُـهُـم فـي مَـهْـدِهِ

نَـهْـبَ الـريـاح وشـهـوة الـطـغـيـان

ولـدوهُ لـلـنـسـيـان. فـي أهـدابِـه

وفـي شَـفَـتـيـه رَجْـعُ أذانِ

"ألـلـهُ أكـبَـرُ". صـيـحـةٌ مـذبـوحَـةٌ

أصـداؤهـا فـي ذمَّـة الـرحـمـن..

وإقـامـةٌ مـنـفـيَّ. وجُـرحٌ نـاغـرٌ

ومُـدىً مـدرَّبَـةٌ عـلـى الـشـريـانِ

ويـصـيـحُ طـفـلُ المـوتِ مـلءَ عـذابِـه

ويـدقُّ بـابـاً.. خـلـفـهُ بـابـانِ

ويـبـوحُ مـن ثَـعَـبٍ ومـن عـتـبٍ ومـن

غـضـب. يـبـوحُ بـلـوعـة الـهـجـران

غـنَّـى المـغـنّـي لـلأمـومـةِ. ذاكـراً

أفـضـالَـهـا. وأمـومـتـي تـنـسـانـي!

لـكـنَّـهُ نـسـغٌ يمـدُّ جـذورَهُ

وفـروعَـهُ بـشـفـاعـةِ الإيمـانِ

وإرادةٌ شـبَّـتْ عـلـى أطـواقِـهـا

فـلـيـنـهـضِ الإنـسـانُ فـي الإنـسـانِ

أنـذا الـفـلـسـطـيـنـيّ. شَـدَّ جـراحَـهُ

وطـنـاً يُـضَـوِّيءُ عـتـمـةَ الأوطـانِ

وأنـــا شـــآمـــيٌ. ومـــصـــريٌ. ومـــن

شَـعْـف وصـلـتُ جـزائـري بـغُـمـانـي

وَغَـسَـلْـتُ فـي طُـهـر الـفـراتِ خـطـيـئـتـي

وجـعـلـتُ روحَ الـنـيـل مـن كُـهّـانـي

وحـمـلْـتُ وردةَ يـعـرُبٍ. حِـرْزاً عـلـى

شـوكٍ يـكـونُ. ورُقْـيـةً لـكـيـانِ

صَـعَّـدْتُ مـن أفـقٍ إلـى أُفـقٍ إلـى

أُفـقٍ. ومـا كـانَ الـبُـراقَ حـصـانـي

لـكـنَّ مـيـراثَ الجـدودِ رسـالـةٌ

نـادتْ. فـلـبَّـى حـارسُ الـوجـدانِ

شـفـتـــي لمـيـثـاقِ الـعـروبـةِ مـنـبـرٌ

أعـلـــى. وحـــرفـــي فـــارسُ الـفُـــرسـان

ويـدي عـلـى الـنـكـبـاتِ قُـلْـكٌ صـاعـدٌ

مـــن كـــلِّ جـــنـــسٍ أَمَّـــهُ زوجـــانِ

وورثـــتُ أيـــوبَ الـــعـــذابِ وصَـــبْـــرَهُ

وورثـتُ نـوحـاً. فـلـيـكـنْ طـوفـانـي

يَـبْـلـى عـلـى لحـمـي الحـديـدُ. وتـنـحـنـي

لـــدمـــي زحـــوفُ الـــفُـــرسِ والـــرومـــانِ

وأمـوتُ. لا لـلـمـوتِ. لـكـنْ لـلـرضـا

بـحـيـــاةِ رَغْـــدٍ. فـــي رضـــا رضـــوانِ

مـن قـسـمـةِ الـشُّـهَـداءِ أطـلـبُ قـسـمـتـي

روحـاً يـعـافُ نَـواصـلَ الـقُـمـصـان

هـذا أنـا. نـورُ الـتـجـلِّـي هـاجـسـي

لا هـاجـس الـشـهـواتِ فـي الأبـدانِ

وأنـا مـن الـصـحـراء نـبـضُ مَـرابـعٍ

ومَـراجـعٍ ومـواجـعٍ وَمَـعـانِ

وأنـا ابـنُ يَـعْـرُبَ. بِـكـرُهُ وصـغـيـرُهُ

وأخـيـرُهُ فـي عُـقـمِـهِ الـروحـانـي

أوصـى. فـمـا خَـذَلَ الـوفـاءُ أُبـوَّهْ

ووصـيّـةُ الآبـاءِ دِيـنٌ ثـانِ

أوصى. فيا روحَ الصحارى استيقظي

أَسنَ النعاسُ على قذى الأجفان

وصحا الجليليُّ المجلجِلُ عاصفاً

ومُبشِّرُ الراياتِ بالخَفقانِ

أنذاهنا. من نَحْلِ "مَسقطَ" مُسقِطٌ

رُطَباً جنيّاً طابَ في بُستاني

ودَعتُ بيتي المقدسيَّ. وجئتُكُم

قلباً يُباعِدُهُ الهوى قيُداني..

أنذا. ونحنُ. هنا. سلالةُ يَعْرُبٍ

ورسالةُ الإخوانِ للإخوانِ

عَــرَبٌ إلــى عَــرَبٍ، وتــفــتــحُ بــابَــهــا

جــنّــاتُ عَــدْن. يــا بــنــي عَــدْنــان

عَــرَبٌ إلــى عَــرَبٍ، وتُــبــعَــثُ أُمَّــةْ

مــن أُمَّــةٍ خَــطَــرَتْ عــلــى الأكــوانِ

ويــجــدِّدُ الإدراكُ عــهــدَ رســالــةٍ

ســطــعــتْ مــن الإنجــيــل والــقــرآن

عَــرَبٌ إلــى عَــرَبٍ، وتُــبــصــرُ وَجْــهَــهــا

شَــمــسٌ. وتــذكُــرُ مَــجــدَهــا الــنّــوراني!

---

* الليل والنهار.

بائيــة العــرب

تَـخـشَّـبَ الـوجـهُ.. أم مـرآتُـهُ خَـشَـبُ؟

أمْ أسفرتْ مهجةٌ، فاستعصت الحُجُبُ؟

وهــاجَــرَ الــنــورُ، أم سُــدَّتْ مــنــافــذُهُ

سـألـتُ شمسـاً، فردَّت بـالـصدى سُـحُـبُ

واســتــنــفـر الــسـرُّ أسـراراً يـلـوذ بـهـا

وآثــــر الجــــهــــرُ ألا يُـــحـــــرَجَ الأدَبُ

فـغـادرتـنـي أغـانٍ كُـلُّـهـا تـعـبٌ

وحـاصـرتـنـي مـراث، بـعـضُـهـا الـتـعـبُ

وأرسـلـتْ راحـتـي لـلـقـلـب حـيـرتـهـا

فـكـادَ، حـيـرانَ، مـن أضـلاعِـهِ يـثـبُ

وسـاورتـنـي هـمـومٌ لـسـتُ فـارِسـهـا

فـبـتُّ فـي ظـمـأ، والـوجـدُ مـلـتـهـبُ

يَسحُّ جرحي على جرحي، ومن وجعي

تـذوي الـربـابـةُ، والمـزمـارُ يـكـتـئـبُ

وكـدتُ مـن عـجـبـي لا أدَّعـي عـجـبـاً

وكـادَ من غضبي أن يـغـضـبَ الـغـضـبُ

بـلادُ أهـلـي إذا اسـتـعـطـيـتُ مـانـعـةٌ

ولا يـُـردُّ لـبـاغ عـرضَـهـا طـلـبُ

سـبـيّـةٌ، يمـتـطـي الأغـرابُ سُـرَّتـهـا

وأهـلُـهـا، طـاريءٌ فـيـهـا ومـغـتـربُ

مُـنْـيـتُـهـا وحـدةً فـي الـدهـرِ واحـدةٌ

ويـومَ لامـسـتُ عـرَّتْ وهـمـهـا حـقـبُ

هـا نـحـنُ. مـن نـحـنُ؟ أعـرابٌ وبـاديـةٌ

وجُـهـدُنـا، مـا تـدرُّ الـنـوقُ، والـرُّطَـبُ

قـبـيـلـةٌ يُـسـرهـا فـي عُـسـر جـارتـهـا

وصـرخـة الـيُـتـم مـن أخـتٍ لـهـا، طـربُ

مـن نـحــن؟ هــا نــحــنُ. أوصــالٌ ممــزقــةٌ

لا طُنْـبَ يـشـقـعُ فـي وصـل. فـهـل طُنُـبُ؟

نـسـجُ الـعـنـاكـب مـا يُدعـى خـرائـطـنـا

ولـلـتـوجُّـس شـراً يمـثُـلُ الـسـبـبُ

فـي كـلّ نـاحـيـةٍ، والأرضُ سـائـبـةٌ

تُـمـزّقُ الـريـحُ، والأمـواجُ تـنـتـهـبُ

ولـلـعُـزاةِ جـمـوحٌ خـائـضٌ دَمـنـا

ولـلـطـغـاةِ عـلـى أشـلائـنـا نُـصُـبُ

آلـتْ-فـكـيـف؟-غـبـارَ الـنـاسِ أمَّـتُـنـا

وكـيـف حـالـت رمـاداً أرضـنـا الـذهـبُ!

تـصـارعـتْ فـي خـفـايـا سِـرِّنـا أممٌ

لا نـحـن مـنـهـا ولا فـيـهـا لـنـا أرَبُ

كـأنـهـا ورثـت بـالـعـدلِ مـنـزلـنـا

ونـحـنُ مـقـتـحِـمٌ فـيـهِ ومـغـتـصِـبُ

مـن المـلـومُ؟ وفـيـنـا ضـافـيـاتُ أسـىً

طـامٍ، وصـوتُ دعـاةِ الحـقِّ مُـقـتَـضـبُ

مـنـائـرَ الـروحِ هـل غـشَّـتـكِ غـاشـيـةٌ

تـعـمَّـم الجـهـلُ فيـهـا والـتـحـى الـكـذِبُ

ونـازعـتْـنـا عـلـى الأوطـانِ نـازعـةٌ

والـظـلـمُ مُـتَّـزنٌ والأمـنُ مـضـطـربُ

ولا صـــبـــاحَ بـــلا رؤيـــا مـــبـــاعِـــدَةٍ

ولا مـســـاءَ بـــلا عـمـيـــاء تـــقـــتـــربُ

لأيَ يُـــتـــمٍ تـــرى آلـــتْ ســـلالـــتُـــنـــا

فـلـيـس يـجـمـعـنـا فـي مـحـنـةٍ نَـسَـبُ

وأنـكـرتْ رحـمـهـا فـي الـعُـسـر والـدةٌ

فـبـعـدَ هـاجـرَ هـل أمٌّ لـنـا وأبُ؟

أسـتـغـفـرُ الـلـه فـي إثـمٍ يـضـيـقُ بـنـا

ويـزدريـنـا فـلا نُـسـتَـغْـفِـرُ الـنُّـوبُ

وتـزدريـنـا الأمـانـي دونَ مُـحـتـسَـبٍ

وتـصـطـفـيـنـا المـنـايَا كـيـف نـحـتـسـبُ

.

أستـغـفـرُ الـلـه فـي إثـمٍ نضـيـقٌ بـهِ

ونـزدريـه، فـتـقـفـو كُـربـةٌ كُـرَبُ

تـلالـنـا لأزاهـيـر الـردى. ودمٌ

عـلـى المـروجِ. وأسـرابُ الـرُؤى لَـهَـبُ

وزهـوُنـا بـأنـاشـيـد الـرضـا غَـرَقٌ

وجـلـبـةُ الخـلـقِ فـي سـاحـاتـنـا هَـرَبُ

ونـسـلُـنـا غـلّـةٌ لـلـقـفـر غَـلَّـتُـهـا

وحـالُـنـا حـالُـنـا. والـكـونُ مـنـقـلـبُ

وَسَـادةٌ ثَـلَّـةٌ، ثُـلَّـت سـيـادتـهُـم

يـحـاصـرون الـغـدَ الآتـي بمـن ذهـبـوا

لـلأجـنـبـيِّ ارتـضـوا قـربـى عـلـى جَنَـفٍ

وقـاربـتْـهـم قـلـوبُ الـشـعـب، فـاجـتـنـبـوا

تـــقـــلُّ فـــيـــنـــا مـــع الأيـــام قـــلَّـــتُـــنـــا

وفـيـهـمـو تـكـثـر الألـقـابُ والـرُّتَـبُ

قـصـورهـم فـي لـيـالـي الأنـسِ راقـصـةٌ

عـلـى أغـانـي الـهـوى. والـقـدسُ تـنـتـحـبُ

ويـثـمـلـونَ، وقـد بـتـنـا خـوابـيَـهُـم

وإن شَـحَـحْـنـا، فـمـن أحـداقـنـا الـعِـنَـبُ

وجُـلُّ أحـلامـهـم أنّـا نـبـايـعـهُـم

وكـلُّ أحـكـامـهـم أن تـهـلـع الـرُّكَـبُ

كـم لـقُـقـوه غـداً نـبـكـي عـلـى غـده

وضَـيَّـعـوا الـيـوم مـا مـن أمـسـنـا سَـلَـبـوا

ويـنـطـقـون، فـمـا أنـقـى عـرويـتـهـم

ويـفـعـلـون، فـتـلـحـو نـسـلـهـا الـعَـرَبُ

ويُـضـرَبـون عـلـيـنـا فـي مـبـاذلـهـم

فـلا يـثـور لـهـم عـرقٌ ولا عَـصَـبُ

لا بـارك الـلـه فـي خـلـقٍ إذا صُـفِـعـوا

وَقـيـل: مـا الـردُّ؟.. ردَّت عـنـهـم الخُـطـبُ

وبـارَكَ الـلـه فـي نـارٍ تـؤرِّثُـهـا

نـاري، فـكـلُّ طـواغـيـت الخـنـى حَـطَـبُ

أنـا الـعـروبـةُ! أحـنـتْ ظـهـرهـا سِـنَـةٌ

طَـالـت وآن أوان الـصـحـو، فـانـتـصـبـوا!

لـنـا الـمـواعـيـد أشـتـاتٌ يـلـمـلـمـهـا

مـسـتـقـبـلٌ فـي سـديم الـغـيـب مُـرتَـقَـبُ

أنـا الـعـروبـةُ! فـائـتـونـي. أُعِـزَّ بـكـم

مـا يـرتـضـي الـلـه. والأسـلافُ. والـكُـتُـبُ!

(١٩٩٢)

المُمثِّل

وأَخيراً. ها أنتَ. يُرخى الستّارُ

في هدوءٍ. وتُطفأُ الأنوارُ

يخرجُ الناسُ. ثُلَّةٌ فُرادى

وتُجافي المقاعِدَ الأسرارُ

قُضيَ الأَمرُ. مسرحٌ غادَرَتْهُ

في ختامِ المَشاهِدِ الأبصارُ

وانـســدالُ الـغـيـومِ بـاتَ يـقـيـنـاً

فَـسَـلِ الـشـكَّ هَـلْ هَـمَـتْ أمـطـارُ؟

حـــائـــرٌ أنـــتَ. هـــل أَجَـــدْتَ أداءً

أَمْ تـــخـــلَّـــتْ عـــن دَوْرِكَ الأدوارُ؟

لـم تُـمـثِّـلْ. صـغـتَ الحـيـاةَ فـلا كُـتَّـابُ (م)

نَـــصٌّ. والمخـــرجـــونَ ابـــتـــكـــارُ

لـم تُـمـثِّـلْ. كـنـتَ الجـمـاهـيـرَ فـرداً

واســتــعــارَ المــمــثِّــلَ الــنَّــظَّــارُ!

كـنـتَ مـن كـنـتَ. أَلـفَ دورٍ ودوراً

والـنِّـهـايـاتُ خـيـبَـةٌ وانـكـسـارُ

كـنـتَ قـيـسـاً. وعـنـدَ لـيـلـى خَـيـارٌ

ولـــعـــرضِ الأزيـــاءِ كـــانَ الخَـــيـــارُ

أنـتَ قـلـبٌ شـريـانُـهُ الـوجـدُ. لـكـنْ

قـلـبُ لـيـلـى شـريـانُـهُ زُنّـارُ

جـئـتَ لـيـلـى فـي الـقـرِّ تـطـلـبُ نـاراً

عُـدْ كـمـا جـئـتَ. لـيـسَ ثـمَّـةَ نـارُ

لـم تُـمـثِّـلْ. شُـغـفـتَ حُـبّـاً بـلـيـلـى

وفـتـاهـا الـمـفـضَّـلُ.. الـدولارُ!

لـم تُـمـثِّـلْ. أنـطَـقـتَ قـلـبـاً جـمـيـلاً

فَـتَّـحَ الـورْدُ فـيـه والجُـلَّـنـارُ

قـيـلَ قـيـسٌ مـن قـومِ لـيـلـى. كـلامٌ

فـي كـلام. فـقـومُـهـا الـتـجّـارُ!

إنَّـهُ الـدَّورُ يـا ممـثِّـلُ. فـاخـتَـرْ

دونَـكَ الـصـمـتُ مـطـبـقـاً.. والحـوارُ

يـا صـديـقـي. ولـم تُـمـثِّـل فللـخـذلانِ (م)

أرضٌ. ولـلـخـطـايـا بِـذارُ!

كـنـتَ مـن كـنـتَ فـي الجـحـيـمِ رسـولاً

ضـاعَ. لا هـجـرةٌ. ولا أنـصـارُ

كـنـتَ من كـنـتَ. "خـالـداً" فـي الـسـرايـا

و"ابـن زيـدٍ".. وحـولـك الـثـوّارُ

لــم تُــمــثِّــلْ. نــزفــتَ روحَــكَ حــرفــاً

تــلــوَ حــــرف. وفـــي الـــعـــــروق أُوارُ

صــادقٌ أنــتَ. والأكــاذيــبُ نسـغُ الـدورِ (م)

فـــاحـــذَرْ. لـــن تـــشـــقَـــعَ الأَعـــذارُ!

لـفـظـةُ "المجـدِ" فـي الـقـوامـيسِ نـامـتْ

و"المـعـالـي" أَغـفـى عـلـيـهـا الـغُـبـارُ

و"الـغـطـاريـفُ" لـفـظـةٌ هـجـرتْـنـا

و"المـيـامـيـنُ" عُـــرُّهُـــم أَغـــرارُ

وشـــتـــاتٌ مـــا بـــينَ رومٍ وفُـــرسٍ

ومـــغـــولٌ تمـــضـــي ويـــأتـــي تـــتـــارُ

وطـقـوسُ الـبُـهـتـانِ عـيـدٌ سـعـيـدٌ

وصـــلاةُ الـــوجـــدان خـــزيٌ وعـــارُ

لا تُـمـثِّـل. تحـتَ المـنـصَّـةِ لَـغْـمٌ

وعـلـيـهـا لـغـمٌ. وفـيـكَ انـفـجـارُ

تُـرهـقُ الـريـحُ بـالـهـبـوبِ جـنـاحـاً

فـلـتـؤمِّـلْ ركـودَ هـا الأَطـيـارُ

وإذا هَـوَّمَ الـنَّـدامـى سُـكـارى

لـيـسَ فـرضـاً أن يـسـكَـرَ الخـمّـارُ

لا تُـمـثِّـلْ يـا صـاحـبـي. بـعـد صَـوْمٍ

يـتـسـنَّـى لـصـبـركَ الإفـطـارُ

هُـــوَ ومـــضٌ مـــن بَـــرْقَـــةٍ. فـــقـــلاعٌ

تـــتـــهـــاوى. وتـــنـــحـــنـــى أَســـوارُ

ونـــزيـــفٌ مـــن آخـــر الـــقـــلـــبِ. ثَـــهْـــرٌ

ضـــقَّـــتـــاهُ هـــزيمـــةٌ وانـــتـــصـــارُ

فـانـتـصِـبْ! وانـتـسِـبْ! وَبُـحْ: أنـا مِـمَّـنْ

وَقَـــفَ الـــكـــونُ ذاهـــلاً يـــومَ ســـاروا!

إنَّ عَـيْـشَ الأَجـسـامِ عـارٌ إذا الأجسـامُ (م)

عـــاشـــتْ.. ومـــائـــت الأَفـــكـــارُ!

وإذا عَـــزَّ ظِـــلُّـــهـــا وَجَـــنـــاهـــا

وَجَـداهـا.. مـا نَـفْـعُـهـا الأَشـجـارُ؟

يـا أخـا الـعُـرْبِ. حـاذِرِ الـدورَ. حـاذِرْ

مـــا تـــفـــحُّ الأَقـــلامُ والأَوتـــارُ

حـاذِرِ الـدورَ. يـا أخـا الـعُـرْبِ. فـيـهِ

يـتـسـاوى الأَخـيـارُ والأَشـرارُ

حَـبَـكَـتْـهُ أَيـدي الخـفـاءِ قـنـاعـاً

خَـلْـقَـهُ الـعـارُ كـامـنٌ والـشَّـنـارُ

يـا صـديـقـي. ولا يَـغُـرَّنَّ حَـشْـدٌ

أَلـمـلايـيـنُ جُـلُّـهـا أَصـفـارُ

مُـفـردٌ أنـتَ فـي الـصِّـراعِ وحـيـدٌ

والـضَّـلالاتُ جـيـشُـهـا جَـرَّارُ

فاسبُر النصَّ لفظةً تلو أُخرى

وتريَّثْ ليستقيمَ المسارُ

ضاقت الأرضُ يا رفيقي بما تنزفُ (م)

جَهْراً وأَعْسَرَ الإصرارُ

هكذا نحنُ. هكذا أنتَ. فاضرِبْ

بعصا السِّحْرِ. ولْتُشَقَّ الغِمارُ

آنَ للكَشْفِ أن يبوحَ بما يُضمِرُ (م)

غَيْبٌ وتحجُبُ الأستارُ!

يا صديقي. في النَّصِّ بُستانُ لوزٍ

ونخيلٍ. وموسمٌ. وثمارُ

دانياتٌ. من تحتها أنهارُ

كُلُّ شيءٍ كما يُرام لديهم

جنَّةٌ نحنُ أهلُها الأبرارُ

أيُّهذا الممثِّلُ الفذُّ فالعَبْ

كيفما شئتَ.. ليسَ إلا قفارُ!

كَذَبَ النصُّ. لا هُنا الأهلُ أهلٌ

لا. ولا الدارُ يا صديقيَ دارُ

يخذلُ الطفلُ أُمَّهُ وأباهُ

وعلى جارِهِ يجورُ الجارُ

لـلـحـوارِ الـرقـيـقِ وقـعُ صُـداعِ

وذُوارٌ رَجْـعُ الـنـقـيـق. ذُوارُ

هـكـذا نـحـنُ. يـا لـهـاةَ المـآسـي

يُـزعـجُ المـوتَ مـوتُـنـا المِـهْـذارُ

لا تُـمـثِّـلْ. ولا تُـمـثِّـلْ. عـبـيـدٌ

نـحـن.. والـوهـمُ أنـنـا أحـرارُ!

صَـلَـبَ الـكـاتـبُ الـحـقـيـقـةَ. واغـتـالَ (م)

الـحـروفَ الـرقـيـبُ.. والمـنـشـارُ!

والمـرايـا تـقـولُ مـنّـا وجـوهـاً

لا كـلامـاً لـه الـوجـوهُ الـكِـثـارُ

والمـــرايـــا تَـــجُـــبُّ وجـــهـــاً قـــديمـــاً

حَـــزَّ فـــيـــهِ الـــتَّـــردادُ والـــتَّـــكـــرارُ

طـــوَحـــتـــهُ الـــريـــاحُ بـــرّاً وبـــحـــراً

واســـتـــبـــاحـــتْ نِـــثـــارَهُ الأَهـــوارُ

هَـــبَّ أَهـــلُ الـــكـــهـــفِ الـــقـــدامـــى. ونمـــنـــا

وتَـــلَـــهَّـــى بـــذكـــرنـــا الـــسُّـــمَّـــارُ

أمـــسِ كـــانـــوا.. وأمـــسِ كـــانـــوا. وكـــانـــوا

وَمَـــلَـــلْـــنـــا. وَمَـــلَّـــنـــا اســـتـــذكـــارُ

وطـــنـــاً صـــارَ كَـــهـــفُـــنـــا. صـــار كـــهـــفـــاً

وطـــنٌ كـــيـــفَ جـــئـــتَـــهُ. فـــحـــصـــارُ

يـزحـفُ الـرمـلُ فـوقَـهُ. والأنـاشـيـدُ (م)

نمـــاءٌ. وخـــضـــرةٌ. وازدهـــارُ!

حْـــدَعَ الـنـــصُّ روحَـــهُ. وأُهـــيـــئَـــتْ

لَـــهَـــفـــاتٌ. وزُوِّرتْ أَوطـــارُ

والإراداتُ طُـــرفـــةٌ. وافـــتـــراضٌ

عَـــبَـــثـــيٌّ. ولـــلـــرؤى مـــنـــظـــارُ!

ومـعـانـي الـقـامـوسِ غـيـرُ المـعـانـي

وحـــدودُ الـنـــامـــوسِ ثـــوبٌ يُـــعـــارُ

ومُـــعـــارٌ زمـــانُـــنـــا مـــن زمـــانٍ

مُـســتـعـارٍ. زمـــانُـــهُ مُـــسـتَـــعـــارُ

نـحـن فـي حـضـرةِ الحـيـاةِ غُـراةٌ

وَعَـلَـيْـنـا مـن خِـزْيِـنـا أَطـمـارُ

كـرمُـنـا سـابَ. والـنـواطـيـرُ نـامـتْ

فـإذا المـصـرُ دونَـنـا أَمـصـارُ

وإذا لحـمُـنـا مـتـاعُ الـضـواري

نـاوَشَـتْـهُ الأَنـيـابُ والأَظـفـارُ!

مـا الـذي ظـلَّ مـن حـسـابِ الـقـرايـا

والـسَّـرايـا كـمـا تـرى أَطـوارُ

وصـروف الـزمـانِ مـدٌّ وجَـزْرٌ

وَمَـهـاوٍ مـا قـرَّ مـنـهـا قـرارُ

ولـئـسْـلِ الـطُّـغـاةِ نَـسْـلُ طُـغـاةٍ

والمـرابـي فـي صُـلـبِـهِ سـمـسـارُ

وإذا مـالـت الـرقـابُ عـيـاءً

شَـحَـذَ الـنَّـصـلَ فـوقـهـا جَـزّارُ

فـاحـفـظ الـدورَ يـا صـديـقـيَ واحـفـظْ

حـكـمـةَ الـدَّورِ أيُّـهـا الـبـحّـارُ

مـاهِـرٌ أنـتَ فـي الـسَّـبـاحَـةِ لـكـنْ

مـاهِـرٌ ضـدَّ حُـلْـمِـكَ الـتـيَّـارُ

لا تُـمـثِّـلْ. خـبـزُ المـسـارِحِ مُـرٌّ

والحـلاواتُ دونَـهـا أقـدارُ

لا تُـمـتَّـلْ. كـفـافُ يـومـك دار

آنَّ طَـعْـمَ الإبـداعِ مـا تـشـتـارُ

وضـجـيـجُ الأخـبـارِ لـلـبَـغـي لـكـنْ

خـبـرَةُ الحـقِّ مـا لـهـا أَخـبـارُ

عَـلَّـمَـتـكَ الأيـامُ درسـاً فـدرسـاً

فـإذا الـشـاسـعُ المـدى أَشـبـارُ

يـا صـديـقـي. وحـكـمـةُ الـلـهِ عُـمْـرٌ

لا شـيـوخٌ تحـكـي ولا أَحـبـارُ!

كـنـتَ مـن كـنـتَ. قـيـصـراً وابـنَ رُشـدٍ

والـنَّـجـاشـيَّ. كـنـتَ أَنـتَ فـصـاروا

جُـسْـتَ سـرَّ الأسـرارِ. عـايـشـتَ بـوذا

وابـنَ سـيـنـا ودارَ فـيـكَ المـدارُ

جُـنَ تمَـورُ فـي جـنـونِـكَ حُـبَـاً

يـا صـديـقـي. وخـادَعَـتْ عـشـتـارُ

كنتَ جلـجـامشَ التـعـيسَ وإنكيـدو (م)

وبـاحـتْ بـسـرِّكَ الآبـارُ

كـنـتَ أيّـوبَ مـحـنـةٍ بَـهَـظَـتْـهـا

مِـحـنـةُ الـصـمـتِ والأسـى هـدّارُ

يـا فـنـارَ الأيـامِ غـرقـايَ كُـثـرٌ

فـأَغـثـنـي بـبـعـضِـهِـم يـا فـنـارُ

مَـنْ مـلـوكُ الـشـطـآن. أَهْـيَ الـصـحـارى

روحُ روحـــي. أمِ المـلـــوكُ الـبِـحـــارُ؟

وَقَـيـافـي الـرحـيـلِ تـطـوي خَـبـالـي

وابـتـهـالـي: قَـلْـئَـنْـجُ لـي آثـارُ!

غـارقٌ فـي الـرمـال. والـبـحـرُ سـاج

وقـلـوعـي يـشـطُّ عـنـهـا المـزارُ

عـازفٌ مـرهـقٌ وَعُـودٌ هـشـيـمٌ

وأغـانٍ يـغـتـالُـهـا الـقـيـثـارُ

غَـرَّمَـتْـهـا أصـائـلُ المـوتِ يُـتـمـاً

وأنـاخـتْ بـثُـكْـلِـهـا الأَسـحـارُ

أيــن؟ يــا أيــنَ، يــسـتــقــيــمُ صــراطــي؟

كـيـفَ؟ يـا كـيـفَ، يُـقـبـلُ الإدبـــارُ

آدمـــيٌ هــذا المــمــثِّــلُ. لا نــصــفُ (م)

إلـــــــه، ومـــــاردٌ جـــــبَّـــــارُ

آدمـــيٌ. طــينٌ عــلـــى الـــنـــارِ. فـامـثُـلْ

لاقــتــحــامِ الــصَــوَّانِ يــا فَــخّــارُ!

أَنـتَ مَـثَّـلْـتَ. لـم تُـمَـثِّـلْ. تـقـمَّـصْـتَ (م)

الخـــفـــايـــا، فـــأســـفـــرتْ أَغـــوارُ

يــا صــديــقــي غــامــرتَ فــي ألــفِ فَــجٍّ

واســـتـــزادتْ أســـفـــارَكَ الأَســـفـــارُ

جُـبْـتَ أَقْـصـى الـرؤيـا بـأدنـى المـرايـا

وتـشـظَّـيْـتَ. فـالـفـضـاءُ انـبـهـارُ

حـيـثُ تـخـطـو عـلـى المجـرّاتِ نَـجْـماً

يـتـغـاوى لـيـلٌ ويُـغـوي نـهـارُ

يـا صـديـقـي. ووحـدكَ الآن تـذوي

ويُـذرّي خـريـقَـكَ الإعـصـارُ

وحـدكَ الآنَ. لاشـتـبـاهِ المـعـانـي

ولحُـكْـمِ الإدراكِ مـا يـخـتـارُ

ألـبُـطـولاتُ دَوْرُهـا لـيـس يُـشـفـي

والـهـيـولـى حـدودُهـا أَعـمـارُ

وَحْـــدَكَ الآنَ. وَحْـــدَكَ الآنَ. غَـــمْـــرٌ

يـتـــهـــاوى.. وَمَـــسْـــرَحٌ يـــنـــهـــارُ!!

(حزيران ١٩٩٩)